

الجوع والمرض في عالم الطبقات الفقيرة للاستاذ فايد العمروسي

يست ظرووف الحرب وحدها هي التي حرمت الطبقات الفقيرة من التغذية الكاملة ، ولكنها حالة قائمة قبل هذه الأزمات التي نعانينا الآن ، ثم جاءت الحرب الحاضرة فزادتها سوءا على سوء ، فالطبقات الفقيرة بما فيها صغار الزراع والعمال تعيش في عالم مظلم بعيد عن تفكير أرباب الثراء ، لا يكاد يحس بها نظام المجتمع أو يعترف لها بوجود .

في مصر عالمان من الأحياء ليست بينهما أية رابطة من التشابه أو الموازنة ، فعالم غارق في مجبحة من سعادة العيش ورغده ، وعالم غارق في البؤس والفسك والشقاء ، وليس بين العالمين حالة متوسطة إلا في القليل النادر من طبقات الموظفين ودم قليل .

وأى شيء ذلك العالم الجائع ؟ هو نصف الشعب أو يزيد ، هو القوة العاملة المنتجة التي يقوم عليها كيان الأمة ، أو هو الأمة الحقيقية .. ولا أدعى أن ولاية الأمور ظلوا غافلين عن أمر هذه الطبقات ، أو أنهم أهملوا شؤونها وتناسوا خطرها ، فمذ أعوام بدأ المصلحون يحسون بوجود أمة داخل أمة ، أمة محرومة من ضرورات الحياة ، ومنذ أن أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية والاهتمام بأمر هذه الطوائف يخطو سريعا فيما يتعلق بحقوقها وتغذيتها وصحتها ومساكنها وتعليم أبنائها ، وعلى الرغم من هذا الاهتمام الجدى فإنه لم يظهر من الإصلاحات العملية إلا القليل ، وإن كانت قد بدت أشياء في صور اقتراحات وتكوين لجان ورسم مشروعات وتهيئة قوانين .

آلاف من الأسر الفقيرة العاملة تحتوى كل منها خمس أنفس أو أكثر لا يزيد دخل الأسرة منها على جنيه أو جنيهين في الشهر ، هذه الأسر جميعها تقوم تغذيتها الأساسية على الخبز — إن وجد — وعلى الفول والعدس كل يوم دون استثناء ؛ لا يعرفون من اللحم والفاكهة والحلوى بأنواعها غير أسمائها ، وملايين من الأطفال والصبيان والشبان جائعون ، تتوذب أحشائهم شوقا إلى طعم الدسم ورائحة الأدم وهم عاجزون ، يرغبهم ضيق المادة والعدم وارتفاع الأسعار .

قد يستغرب بعض أغنيائنا هذا الكلام ، وإنه حقا لغريب !! ولكن من يعيش بينهم يحس ما يحسون ، وركل دقيقة وكل ساعة آلافا منهم فيما يقاسون ، ويعرف كيف يعيشون

في مندرهم وكيف يأكلون وكيف ينامون، ولست يستغرب هذا الكلام لأنه يرى بعينه لاجتماعه ويحس شقاءهم إحساسا ماديا له ونحوه .

إن مرحلة السن التي يجمع فيها هؤلاء الملايين من الناس أو يتعدون تغذية رديئة هي أدق وأخطر مرحلة من مراحل العمر في صحة الأجسام ، هي المرحلة المهمة المحتاجة إلى التغذية الكاملة أو الصحية على الأقل ، وهي المرحلة التي تتكون فيها أسس الأجسام والعقول ويتقرر فيها مصيرها ، فلما أن تنشأ سائمة قوية فتصح وتنفع ، وإما أن تنشأ هزيلة سقيمة فسوء وتمرض ، ومستقبل الأمة العملى رهن بهاتين الحالتين .

هاك الأحياء الوطنية في المدن وفي الريف كله بوجه عام ، تصفح وجوه الأحياء فيها طفلا وطفلة وشابا ورجلا ، إنك لن ترى غير الخزال والكسل والفتور وتراخي الأعضاء وشحوب الألوان ، ترى احتضارا بطيئا مطبقا على هذه الأجسام ، احتضارا في الأجساد والأرواح والعقول ، احتضارا في كيان الشعب الجوهري وبذوره الحية التي لا تعوض .

وأنا لا أزعم أن في طاقة الحكومات تيسير المعيشة الكاملة أو الصحية لكل هذه الطوائف الكثيرة ، ولا أزعم أن في ميزانية الدولة ما يكفي لرفع مستواهم وإنقاذهم من براثن الفقر والجوع دفعة واحدة ، ولكن أزعم أن في وسعها بعض الإنقاذ النسبي في كثير من الإسراع .

إن الحكومات المتعاقبة تعنى أهم العناية بالمسائل العمرانية على اختلاف أنواعها وتعدد صورها ، فهي قد عنت وتنى الآن بإقامة الجسور العظيمة وإنشاء المستشفيات بالمجان وإقامة المعارض وفتح الجامعات والمدارس العليا وما شاكل ذلك ، كل هذا ولا شك يتطلب منها إنفاق الكثير من الأموال ، أفلا كان جزء من تلك الأموال الطائلة منقذا بعض الإنقاذ لهذه الطبقات التي يعوزها أهم ضرورات الحياة وهي التغذية الكاملة ؟

إن إقامة جسر عظيم ليس أعظم نفعا ولا أجل أثرا من تغذية بضعة ألوف من أبناء العمال والزراع الفقراء ليصبحوا عناصر قوية في بناء الأمة الناشئة التي تجارى الزمن وتخطو في ميدان الرقى مع الأمم المتحضرة ، وبأى السواعد تقام هذه الجسور مثلا إذا كانت سواعد البلاد مشلولة بالفقر والدم وسوء التغذية ؟ ولمن تصرف القنوات والخزانات مياه النيل العظيمة إذا كان صغار الزراع محرومين من خيراتها ؟

والمستشفيات بالمجان تقام في أنحاء البلاد لهؤلاء الفقراء المرضى ! إننا لا نسحو عليهم بالطعام وهم أصحاء ، ونسحو عليهم بالدواء وهم مرضى ، لو تغذى هؤلاء الناس ما مرضوا ، ولو مرضوا لأعنتهم التغذية الجيدة عن الدواء ، فبعض ما ينفق في إقامة المستشفيات منقذ أيضا أى إنقاذ من الجوع والأمراض .

ولمن تنشأ الجامعات والمدارس العالية ؟ لأنها تنشأ لطوائف من الناس عاشوا غير جائعين وتثقفوا بقدر كاف من الثقافة يؤمن معه العيش في الحياة ، هذا عظيم ولا شك ، ولكن أين جيوش الأطفال في التعليم الإلزامي وقد عاشوا جائعين ، ولم يتثقفوا في قليل ولا كثير ؟ ؟

أنا لا أدعى أن لكل حقا في التعليم بجميع مراحلها ، ولكن ادعى أن لكل حقا في الحياة ما دام قد خلقه الله وأن من حق كل فرد أن يعيش ، ومن حقه ألا يموت جوعا ، ومن حقه أن يقول لمن وصل إلى التعليم الجامعي : ”قف هنا حتى أطعم بعض الطعام فإني خائر القوى جوعان“ .

ولشد ما أبتسم حين أذكر تفريم أولياء أمور التلاميذ إذا امتنعوا عن إرسال أبنائهم إلى المدارس الإلزامية ، أبتسم ابتسامة الألم لأنني — وأنا قروي — أعرف مدى حاجة الأجير أو العامل إلى ابنه الصغير ، إنه يساعد أباه في الحصول على ضرورات الحياة اليومية ، أنه لم يمنعه من المدرسة بطرا أو رغبة عن التعليم أوجهلا بقدرة ، ولكنه منعه لأن الطفل أولا جائع ، وثانيا عار ، وثالثا لأنه يجمع القوت اليومي مع أبيه وأهله ... ويجانب هذه الابتسامة الأنيمة أبتسم ابتسامة أخرى فيها الرضاء والتفاؤل والتقدير للشروعات القائمة الخاصة بتغذية هؤلاء التلاميذ ، والأمل وطيد في جهود وزارة المعارف أن تعمل على زيادة نسبة الأموال المقررة لتنفيذ هذا المشروع الجليل ، فإنه بوضعه الحالي يستبر نواة لما تزل صغيرة وإنا لنأمل لها التضيخم والمزيد .



ان كل قرش من مالية الدولة يحسن معيشة هذه الطبقات لهو قرش حلال ، إنه يطعم آلافا من الأطفال والصبيان من سن السابعة الى سن الثالثة عشرة ، إنه يكون جيوشا من صحيحي الأجسام والعقول أبق وأنفع أثرا من الجيوش المحاربة والأساطيل ، إن العناية بتوفير اللقمة الجيدة لهذا النشء الفقير أولى وأجدر من العناية بمسكنه وملبسه بل وعلاجه من المرض إذا لم يمكن العناية بها جميعا .

لقد رأيت بعيني مئات المرات بعض العمال الشبان الذين يقيمون المنشآت بسواصدهم ويحيون الصناعات بقواهم الجسدية يتناولون الخبز والمش والبطيخ الفاسد الرخيص ، وأعرف مئات الأسر من صفار الموظفين والمستخدمين المعيلين لم تدخل اللخوم منازلهم في هذه الأزمات ، ومن أطفالهم من يذهب إلى المدارس دون زاد في الصباح ، أما المستأجرون من الزراع وصفار الملاك فأمرهم ليس في حاجة إلى إيضاح أو دليل .

هذا ، وليس المطلوب أن توزع الحكومة على هذه الطوائف الأموال من خزائنها ، أو أن تطعم الناس كما يشتهون ، ولكن المطلوب أن يكون تحسين معيشة هذه الطوائف أمرا هاما من أمور الدولة الاجتماعية وأن تنال حالهم نصيبا من التقدير كأخطر أمر من أمور الدولة وكأهم شأن من شؤونها . وإن بعضا من التغيير في إيرادات الدولة بالزيادة ، وبعضا من النقص في مصروفاتها التي تعتبر كإلية بالنسبة لشعب فيه هذه الطوائف بحالتها الراهنة ، بعض هذا أو كله ميسر التنفيذ .



هذه المشكلة كما قلت ليست وليدة الحرب الحاضرة ، إلا أنها الآن أوضح وأشد ، وقد زادت ظروف الحرب وضوحا وقسوة ، فارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائية وتلاعب التجار كل هذا زاد في قسوة المعيشة عامة وتجمست هذه القسوة بشكل مزعج في الطبقات الفقيرة التي يموج منها كثيرون في هذه الأيام .

تحدث هذه الآلام وتشتد قسوة الحالة على هذه الطبقات العاملة الفقيرة في الوقت الذي لا تجوع فيه بعض الكلاب لبعض الناس ... ! بل في الوقت الذي يموت فيه كلب لراقصة فنقام عليه المآثم والمنادب ، وتنهال برقيات العزاء وتصرف مئات الجنيئات صدقة على روح المرحوم ... !

على أن هذه المشاكل الاجتماعية وأمثالها ليست وقتنا على مصر وحدها بل تكاد تكون عامة في كثير من الدول إلا أنها في مصر بدرجة لا يرتاح لها إنسان ، ولقد عرفت مما قرأت أن بعضا من البلاد الأوربية والأمريكية عابجت مشكلة التغذية للطبقات الفقيرة والعاملة التي لا تستطيع أن تتغذى تغذية كاملة أو صحية ، فعمدت إلى تكوين مجالس عليا للعناية بشؤون التغذية ومساعدة العاجزين عنها بتحسين دخلهم ، ولما كان نظام الغذاء اقتصاديا بحثنا فقد أشارت اللجان المكونة على حكوماتها بتعديل سياسة الجمارك وضرائب وسائل النقل ، وبهذا ضمنن اللجان تخفيض أسعار المواد الغذائية فاستطاعت هذه الطبقات أن تجد ما تعيش به .

وليس معنى هذا أن كل علاج يصلح في بلد يصلح في أخرى ، ولكن معناه أن العلاج ممكن ، وأن كل محاولة أو تصرف على ضوء طبيعة البلاد الجغرافية وفي حدود النظم الاقتصادية فيها إن لم يصل إلى نهاية الغاية المرجوة من الإصلاح فهو واصل حتما إلى جزء منها ، ومعنى هذا أيضا أن غيرنا من الدول عانى ما نعانیه نحن الآن ففكروا بوسائل وناضل وتحايّل حتى حل مشكلته أو قرب من الحل .

وأخوف ما أخافه أن نستعين بهذه الملايين التي تقاسى الجوع والفاقة في هذه الظروف العصبية فينشأ جيل جديد موبوء بالأمراض والبطالة ، ونفاجاً يغيوش بجرارة من مرتكبي الشرور والجرائم في الوقت الذي تكافح فيه الحكومة أسباب الشرور والمفاسد ، وفي الوقت الذي تعنى فيه باليتامى واللقطاء وتربية الأحداث وإيواء المتشردين ، وفي الوقت الذي تغسل فيه عار البغاء وتمحوه ، وفي الوقت الذي ستواجه فيه بعد الحرب مئات من المشاكل الاجتماعية المعقدة التي تتطلب جهوداً وإخلاصاً وكفاءات ممتازة .

فايد العمروسي

قال أعرابي لهشام بن عبد الملك : ” أت علينا ثلاثة أعوام : فعام أكل اللحم ، و عام أذاب الشحم ، و عام انتقى العظم . وعندكم أموال فإن كانت لله فادفعوها إلى عباد الله ، وإن كانت لعباد الله فلا تحبسوها عنهم ، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزي المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين “

فقال هشام : ” فهل من حاجة غير ذلك ؟ “ قال : ” ما ضربت إليك إلا بل ، أذرع الحجير ، وأخوض الدبح ، لخاص بدون عام “ .

قيل لأعرابي : ما اسم المرق عندكم ؟ قال : السخين . قيل فإذا برد ؟ قال : لا تركه حتى يبرد !

ما لابن آدم والفخر : أوله نطفة وآخره جيفة ، ولا يرزق نفسه ، ولا يدفع حخته .